(٤)

دين القيمة
كلمة من كلمات
في جوامع الكلم

حديث الجمعة

٨ صفر ١٣٨١ هـ - ٢١ يوليو ١٩٦١ م

انشقت عنه الأرض أرضا كما انشقت عن لداته[1] ولداتها، أنبتته الأرض كما أنبتت كل أحيائها وموجوداتها، وغذته السماء بنورها ومائها، وأمدته الشمس بأضوائها والسموات بطاقتها وقدراتها، كما تفعل في دوام بخالد صفاتها.. فتأمل في نفسه، وتأمل فيما حوله.. عرف وجهل فيما حوله، وعرف وجهل مما في نفسه، ونمت معرفته عن نفسه، ونما جهله في نفسه وفيما حوله، ونمت قدرته بنماء ضعفه، ونما ضعفه في نمو قدرته.. فأغمض عينيه عما حوله وانعكس ببصره إلى ما فيه، فتفتحت له الآفاق، وتفتح له الوجود، وتفتحت له نفسه، فنظر بما فيه كتابا له إلى ما حوله كتابا عليه، فأدرك ما جهل، واستقل ما علم، وطلب المعرفة فيما حوله بالمعرفة بما فيه، والمعرفة بما فيه من المعرفة عما حوله، فازدادت معرفته، وأشرقت الحياة له بين جوانحه، فقرأ إنجيله في صدره، وانشرح له صدره، عرف أنه وجه لما وراءه من الوجود ووحدته، وأنه وراء كل من كان هو له في الحق وجهه.. عرف الحياة لأنه حيا فكانها، وعرف النجاة لأنه نجا فكان عنوانها، وعرف الوجود لأنه مسح عن ضيق موجوده إلى واسع وجوده، فكان وجها لله، وكان عبدا لله، وكان كلمة من الله، وكان روحا مرسلة من روح الله، فقال للناس ها أنذا عبد الله يبعث بينكم، أعطيت كتابي بيميني هاؤم اقرأوا كتابيه.

أنبتته الأرض وتحلت به السماء، وأرسلته الروح للداته من أبناء الأرض والسماء، وأذن له الحق أن يكونه بين أبناء الأرض ابنا من أبناء الإنسان، ورسولا من روح الأرض إلى أبنائها في السماء، أرسل إلى من صلح من الناس، إلى من استيقظ قلبه من الناس، إلى من تزكت نفسه من الناس، إلى من سمت روحه من الناس، إلى من أشرق عقله من الناس في الأرض والسماء. كان رسولا

للخاصة من الناس وليس رسولا للعامة من الناس.. ذلك من نسميه كلمة الله وروحا منه، قدوة العمل، وأسوة الأمل، ومحط الرجاء، وموضوع الاختبار والبلاء.

نحييه اليوم في شهره وعنوانه، إنه مسيح المحرم، إنه نقطة الأحدية وصفر دائرة النهاية الإنسانية. إنه الصفر الذي يمثل معنى العدم في أحدية وجود المحرم على المثال، المحرم الذي يمثل معنى واجب الوجود من الحق الموجود بالشهود، وهو الإنسان الأزلي بالانتساب لمن كان له مظهرا ووجها.

ضرب ابن مريم مثلا للناس، ضرب مثلا للمسلم، ضرب مثلا للمؤمنين، ضرب مثلا لأهل الكتاب في رسالة محمد الذي جاء برسالته للأسود والأبيض والأحمر، جاء للعام والخاص، جاء للناس كافة، فإذا قوم محمد ومن آمنوا بالحق معه وأسلموا لمحمد رسولا له، عن هذا المثل المضروب لهم به يصدون. وما جاءهم محمد إلا ليتابعوه فيرتضيهم الله، ويتواجدوه فيوجدهم الله، ويتابعوه في سنته، وفي خلقه، وفي فعله، وفي أمره، فيتخلقون بأخلاق الله، ويتواجدون بمتابعة محمد إلى الله.. مطلوبا منشودا من طالبيه، موجودا معروفا لمؤمنيه، منزها عن الغيب أن لا يوجد، ومنزها عن الشهادة أن يحاط به.. يتواجدونه منه وجوها له وكلمات لربه، يقوم على الناس بمحبتهم، بيوت رحمته، وجنان نعمته، وسفن خلاصه، في دين القيمة.

إن عيسى عليه السلام ما كان إلا صورة من صور أبناء الإنسان، ضربت مثلا لأبناء آدم، إنسان وجودهم، وأرض قيامهم، وذات ذواتهم، وروح أرواحهم، وعقل عقولهم، ونفس نفوسهم، ونور أنوارهم، وحق شهودهم الكل فيه، والكل له، والكل هو، فلهم اصطفاه الله لنفسه علما عليه، وكرَّم أبناءه حقا عليهم وجعلهم موضعا لاصطفائه بدورهم اصطفاءً منه، ما صلحوا لهذا الاصطفاء وما تأهلوا له. يجتبي منهم من يشاء ويضيف إليه منهم من أناب، فيكون له على ما كان لأبيه بتكاثر الحق فيه.

هذا هو الدين على ما أراده كل رسول، وعلى ما تحدث فيه كل حكيم، وعلى ما عمل به كل إمام، وعلى ما حققه لنفسه وحققه لصحبه كل ولي، وعلى ما جمعه محمد للناس، وعلى ما فرقه محمد في الناس، وعلى ما نشره محمد بالناس، وعلى ما قدمه محمد إلى الناس. يقوم على أمرين.. الإنكار على الذات والإيمان بواجب الوجود، من إنسان الله الموجود، من حيث العقيدة. كما يقوم على عقيدة السلم والمسالمة، والإيثار على النفس في المعاملة من حيث إقامة المجتمع عليها.

فإذا قلنا ما قال الرسول (الصلاة عادة، والصوم جلادة، والدين المعاملة)[٢]، فإنما نقصد بالمعاملة إلى تبادل الوعي بين الناس يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر ومما رزقهم الله من نوره وماله ينفقون.. في

الله يتوادون مؤثرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وفي الله يسالمون ويتحابون حتى ولو رأوا من عيون معامليهم العداوة والبغضاء. يقهرون خصومهم بجارف محبتهم.

تأملوا عيسى عليه السلام وهو يقول (أحبوا أعداءكم)[٣].. امنحوا حارميكم.. آثروا على أنفسكم.. الله في المحبة.. الله هو المحبة.. الله هو المودة.. ما تواد إنسان مع إنسان إلا طابت لهما هذه المودة، وأدركا فيها الصلة بالله، والرضاء عن الله، والرضاء من الله {فمن عفا وأصلح فأجره على الله}[٤].

إن المدنية التي تقوم على الخصام والتنابذ والتدافع والتطاحن حتى تصل لشرعة القتل وسفك الدماء، والتي تقوم على الاستئثار بالمادة وإشباع الشهوات ليست مدنية الإنسان، ولكنها مدنية المادة، مدنية الشيطان، مدنية الشيئية وليست مدنية المشيئة. أما مدنية الإنسان فإنها تقوم على إرادة السلام وحب المسالمة، تقوم على المحبة والمواددة. إنها تقوم على العدل الشامل. إنها تقوم على الحق الكامل. أما اقتسام الأرزاق فيها فأيا ما كان - ما وجدت المحبة - فإنه مرضي مقبول. والأثرة في مدنية الإنسان مجفوة مرذولة، لا يرضاها الإنسان المهذب المتمسك بدينه أو الإنسان الإلهي أو إنسان الله.

إن الذين يتزاحمون على الدنيا مادة تؤخذ بغير حق، وبغير عمل، وبغير جهد، بوسائل مشروعة أو غير مشروعة عندهم أو عند الناس، أو بعيدة عن المحبة للناس، والمودة للناس، هم شياطين الناس، هم شياطين الإنس يعيشون عبيدا لأموالهم تربو في مال الناس وفي دماء الناس. أما الذين يعملون بما يرضي مدنية الإنسان، وبما يرضي ضمير الإنسان، وبما يقبله عقل الإنسان، وبما تستريح له نفس الإنسان، فيجتهدون ويعملون تعاملا مع الناس، معاملة في الله، ومعاملة في الإنسان، بما أحلت مدنية الإنسان، ورضيت مدنية الإنسان، ورضي الحق بما شرع الله، فيأخذون من الكسب لأنفسهم الكفاية، ويمدون أيديهم بما زاد عن حاجتهم إلى إخوانهم في الإنسانية، وإخوانهم في الحياة، وإخوانهم في الله، فأُولئك هم المصلحون حقا ذلكم هم المؤمنون حقا.

إن الإنسانية بما أودعها الله من معاني الضمير الحي، والعقل المدرك والنفس الراغبة في الحياة، على ما هي الحياة، فيها وفي إدراكها وفي حكمتها ما يغنيها عن كل ما سواها، لإقامة العدل بين مفرداتها، ولتحقيق الحرية لها مفردات وجماعات، في ظل قوانين الوجود العاملة، لا تخالف ولا تتعطل.

إن الإنسان بفطرته يميل إلى الاستقامة والحق، والإنسان بنزوته وشهوته يميل إلى الأثرة والاستهتار. فهل مجتمعنا هذا في مدنية الإنسان أم هو في مدنية الأثرة ومدنية الشيطان؟ إن الإنسان على نفسه بصيرة.

ها هي شعوب الأرض تتأسد وتتنمر وتتجمع، بين تآلف وتألب، قطعانا من حيوانات الغابات، وأفاعي الصحاري، لتتصارع، لتتطاحن، لتتقاتل، لتسفك الدماء. يعتز القوي بقوته، ويذل الضعيف لضعفه. فهل هذه البشرية على ما هي عليه؟ هل نرى أهلها يتواصون بحق أو يتواصون بصبر؟ هل يدركون أن السلام بغية كل فرد في الأرض، وأن الحرب ما هي إلا نزوة الشيطان عند مفردات من الناس يعملون لها؟ مفرَّقين مفرِّقين، مشتَّتين مشتِّتين في الأرض، كلما أوقدوا للحرب نارا، أطفأها الله.. يريدون أن يشعلوها في دوام باردة وساخنة، ويجمعون المال - عبادا له - على حساب الأمن والسكينة والسلام. لا يبالون سفك الدماء، ولا يبالون الخصام. يعملون له جهد طاقتهم ليتصيدوا المال في الماء العكر، وقد عكروا ماء الحياة في مجتمع الإنسان.

ها نحن كل يوم نرانا على حافة الحرب فتتبلبل الأفكار وتهتز السكينة، وتفتقد النفوس السلام، فهلا جأر الناس إلى رب الناس؟ هلا جأر الناس إلى راعي الناس؟ هلا جأر الناس إلى قدرة الله في ملك الناس؟ هل توجهت همم الناس إلى غيب الناس وإله الناس؟ إنهم لا يفكرون إلا في قدراتهم وفي أفقهم وفيما يسمونه عقولهم وهم فاقدوها، وفيما يزعمون من رشادهم ولا رشاد لهم. هلا توجه الناس وتجمع الناس وتآلف الناس وتألف الناس يقيمون صلاتهم تضرعا إلى الله أن يرفع عنهم هذا البلاء، مما يعلمون ومما يجهلون، حتى يرفع عنهم الغمة، ويفرج لهم الكربة، متوسلين بعبده ورسوله، متوسلين بكلماته وعباده، مبتغين إليه الوسيلة على ما هداهم وأمرهم، متصلين برسوله من بالله وصلهم، مصلين عليه بصلاتهم به، متجمعين على ذكره، متجمعين على هديه، متجمعين على نصحه، متجمعين على متابعيه، حتى ترفع إلى الله ضراعاتهم وحتى يجاب من الله دعاؤهم؟!

هذا ما يجب أن نلجأ إليه ونتجمع عليه. هدانا الله وإياكم سواء السبيل.

اللهم اجمعنا على قائم كلمتك، وعلى موجود ذكرك، وعلى مشهود اسمك، وعلى عامل رسلك، وعلى مشرق وجوهك، وعلى قيوم حقك وحقائقك من أوليائك. اللهم بهم لبِّ نداءنا وحقق فيك رجاءنا وأنزل السكينة والأمن على قلوبنا والسلم والسلام على أرضنا. اللهم كن لنا في الكبير والصغير من شأننا. اللهم وفق حكامنا وأئمتنا وعلماءنا وروادنا.. اللهم اهد قلوبنا وأنر عقولنا وزكي نفوسنا. اللهم كن لنا ولا تكن علينا ولا تولِّ علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا. اللهم ولِّ أمورنا خيارنا ولا تولِّ أمورنا شرارنا. اللهم عافنا من عدلك وقنا شر غضبتك وعاملنا برحمتك. اللهم القنا كما تحب وترضى ممن أحببت ورضيت، واجعل اللهم خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك.

أضواء على الطريق

- {إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا. وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا}[٥] {والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا}[٦].
- {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون}[٧]. من أحاديث الإحاطة.
- {ورضيت لكم الإسلام دينا}[٨]، {وتمت كلمة ربك}[٩]، (أعطيت جوامع الكلم)[١٠]، (أنا روح القدس)[١١]، (لا مهدي إلا عيسى)[١٢]. من أحاديث الرسول.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ كلمة "لدات" تعني لغويا الشخص الذي وُلد معك في نفس الوقت أو تربى معك. ولكن استخدام كلمة "لدات" مجازيا يشير إلى الأرواح أو الذوات المتآخية المتحابة والمتحدة في جوهرها. وهو ما يستعمله السيد رافع في أكثر من سياق.

٢ إشارة إلى مقولة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: (الصلاة عادة والصوم جلادة ومعاملة الناس هي العبادة.)

٣ "وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ،" (مت ٥: ٤٤).

٤ سورة الشورى - ٤٠

٥ سورة مريم – ٣٠، ٣١

٦ سورة مريم - ٣٣

٧ سورة آل عمران - ٥٩

٨ سورة المائدة - ٣

٩ سورة الأنعام - ١١٥

١٠ جزء من حديث شريف. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغَنائِمُ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِدًا وطَهورًا، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كَافَّةً، وخُتِمَ بي النبيُّونَ). سنن الترمذي، ومسلم باختلاف يسير. كما أخرج البخاري بعضا منه في أحاديث أخرى.

١١ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

١٢ حديث شريف: "لا مَهْديَّ إلَّا عيسَى". سنن ابن ماجه